فكرة الشهر

جدوى الكارثة

ان الآلام والكوارث التي تصاب بها الأمم الحية ، تغذي في نفوس افرادها بذور التنبه والوعي وتوقظ فيهم مشاعر الخوف من الموت والفناء، ثم تضغط عليهم هذه المشاعر لتدفعهم بقوة نحو التمسك بقيم الحياة الخالدة ، ولتحملهم على توحيد الجهود والنضال فترشدهم بذلك الى طريق الخلاص والانقاذ . هكذا كانت كارثة ألمانيا في (يينا) وفي الحربين العالميتين عاملاً على انتعاشها وتجديد قواها ، وهكذا كانت هزيمة فرنسا في حرب السبعين وفي الحرب العالمية الثانية عاملاً على الشعور بالخطر وحب الثأر والانتعاش آخر الأمر . وهكذا يجب ان تكون كارثة فلسطين بالنسبة للعرب عاملاً على الشعور بالخطر، خطر الموت والفناء ودافعاً لهم لتوحيد الجهود في حركة نضالية يدعمها الوعي السليم والتنظيم الدقيق ويغذيها الايمان بالرسالة العربية اي بقيم الحق والخير والمحبة . لقد اصبحنا نخشى ان تكون كثرة الكلام والخطب حول كارثة فلسطين دليلاً على عجزنا وتقصيرنا اكثر مما تكون دليلاً على شعورنا وإرادتنا في الخلاص والانقاذ . ويخيل الينا ان المقصود من تحدي اليهود واستفزازهم الدائم لنا ، ومن تجسيدهم للكارثة في دير ياسين تارة ، وفي قبيه تارة اخرى ، هو ان يكتشفوا حقيقة الشعور العربي ، ومدى التنبه والوعي ، ومقدار التلبية والاستجابة حيال هذا الخطر المهدد بالفناء ؛ وبكلمة واحدة أرادوا ان يعرفوا قدرة الأمة العربية على البقاء والحياة ولعلهم ارادوا كذلك ان يفضحونا امام انفسنا بل امام العالم اجمع عندما يظهروننا بمظهر الضعف والعجز ، ثم ينتهي بنا الأمر الى ان تقل ثقتنا بانفسنا وبامتنا ، وتكون النتيجة الطبيعية التخاذل والاستسلام امام مطامع الصهيونية والاستعمار .

لاشك ان كارثة فلسطين هزت اعماق النفس العربية وأيقظت بذور التنبه والوعي بين العرب في جميع اقطارهم رغم حواجز التجزئة وضغط الاستعمار . وإننا لنلمس آثار ذلك في مطالبة العدد الأكبر من افراد الشعب بالوحدة او الاتحاد وبالجد في العمل والنضال . وقد كانت هذه المطالبة قبل الكارثة مقتصرة على عدد ضئيل من الشباب الواعي ، كما اننا نلمس آثار ذلك في إدراك الشعب لمصلحته وحاجاته من جهة ، وفي إدراكه للعقبات الداخلية التي تحول دون تفتحه وانطلاقه واستخدام قواه وامكانياته من جهة ثانية ، كعقبات الفقر والاستعباد واحتكار الوطنية والاتجار بها . وإذن فليطمئن المتشائمون وفاقدو الثقة بأنفسهم وبأمتهم ان الامة العربية حية لن تموت ، وان اليوم الذي تتحقق فيه حريتها ووحدتها وسعادة ابنائها اصبح وشيكاً قريب المنال . ولن يطول بها الوقت لتصبح قادرة على اداء رسالة الحق والخير والمحبة الى العالم كافة .

إن كل اعتقاد بأن مصدر القوة عند اليهود راجع الى عقل علمي حديث وإلى وفرة المادة لديهم ودعم الاستعمار لهم ، هو اعتقاد خاطىء في قسم منه على الأقل . وفي يقيني ان ايمان اليهود القوي بحقهم في الحياة يكمن وراء هذه المظاهر المادية فيمدها بالحرارة والقوة والاستمرار . ألم يؤمن اليهود بأنهم شعب الله المختار ، وبأن آلام التشريد والتنكيل التي تعرضوا لها هزت اعماقهم ودفعتهم الى التضامن والتضحية والبذل حتى جعلوا من حلم الوطن القومي حقيقة واقعة ؟. ألم يكن إيمانهم بهذا الوطن مؤدياً بهم الى التشبث والاصرار والعناد ، وداعياً بعض الأمم لمساعدتهم والعطف عليهم ؟

ونحن العرب لا تعوزنا قوة السلاح ولا العقل العلمي المنظم ولا المادة بقدر ما تعوزنا حرارة الثقة بأنفسنا والايمان بأمتنا وبقدرتها على الانبعاث والتجدد وأداء رسالتها الخيرة الى الانسانية من جديد . اجل، لا خوف من ان تعوزنا المادة والسلاح وإنما الخوف كل الخوف من فقر الايمان وجدب الروح .

إن الشعور بوحدة الأمة وإيمان افرادها بها وثقتهم بأنفسهم وبحقهم في الحياة الحرة هي التي تخلق قوة المدفع والمادة . أما العكس فغير صحيح ، إذ لو ان القوة المادية تبيد الأمم لبادت ايرلندا وألمانيا وبولونيا واليابان واليهود ... الخ .

إن كل محاولة لبناء قوتنا بتكديس الأسلحة من الخارج او بالاعتماد على تضارب مصالح الاستعمار الغربي مع إهمال الانبعاث الداخلي في النفوس هي محاولة سطحية فاشلة لفقدانها الروح الدافعة والغذاء الدائم . وان الآية القائلة «بان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » صحيحة في هذا المقام الى ابعد حدود الصحة . ثم من يدري ، فلعل الاستعمار الغربي بدهائه وخبثه اراد ان يجعل من العرب ، باسم الخطر الصهيوني ، جنوداً يتقنون حمل السلاح ، ولكنه في الوقت الحاضر يمنع عنهم الأسلحة ويزيد من مشاكلهم الداخلية تعقيداً وفساداً فيدعم الفئات الرجعية ويتحالف مع الطبقات الاقطاعية والرأسمالية . كل ذلك ليحمي الصهيونية ، وليبقي العرب مجرد آلات صالحة لحمل السلاح ومؤهلة للقتال يوم تقع الواقعة بين هذا المعسكر الغربي وبين أعدائه من المعسكر الشرقي .

(السويداء)

شبلي العيسمي